

الفصل الثالث

العلاقات بين السلطان سنجر والخلفاء العباسيين

وصحوة الخليفة العباسية

{ ٥٠٤-٥٥٢هـ / ١١٠٠-١١١٥م }

(أ) علاقة السلطان سنجر بالخليفة المستظهر بالله

(٥٠٤-٥١٢هـ / ١١١٠-١١١٨م)

(ب) علاقة السلطان سنجر بالخليفة المسترشد بالله

(٥١٢-٥٢٩هـ / ١١١٨-١١٢٥م)

(ج) علاقة السلطان سنجر بالخليفة الراشد بالله

(٥٢٩-٥٣٢هـ / ١١٢٥-١١٢٨م)

(د) علاقة السلطان سنجر بالخليفة المقتفى لأمر الله

(٥٣٢-٥٥٥هـ / ١١٢٨-١١٥٥م)

(أ) علاقة السلطان سنجر بالخليفة المستظهر بالله

(٥٠٤-٥١٢هـ/١١١٠-١١١٨م)

في شعبان من سنة ٥٠٤هـ/١١١٠م تزوج أمير المؤمنين الخليفة العباسي المستظهر بالله (٤٨٧-٥١٢هـ) السيدة خاتون بنت جلال الدنيا والدين السلطان ملكشاه بن ألب أرسلان وأخت كل من محمد وسنجر ، وكان صداقها مائة ألف دينار^(١).

ولقد قصد كل من سنجر وأخيه محمد الخليفة العباسي المستظهر بالله في بغداد ، فعهد الخليفة بالسلطنة لمحمد ، وفوض لسنجر ولاية العهد^(٢). وقبيل وفاة السلطان محمد عهد لابنه محمود بتولى أمور السلطنة ، وما كان من الخليفة العباسي المستظهر بالله الا أن اعترف بمحمود سلطانا - وهذا يناقض عهده لسنجر - فيما رفض سنجر أن يكون تابعا لابن أخيه ومن ثم أعلن نفسه سلطانا على السلاجقة ، مما أحدث خلافا كبيرا بين سنجر ومحمود أدى الى حد القتال بينهما وكان النصر في معظم الأحيان حليفا لسنجر^(٣)، وهذا مادفع الخليفة العباسي المسترشد بالله أن يعترف به سلطانا للسلاجقة بعد وفاة والده الخليفة المستظهر بالله .

ومن هنا يتبين أن موقف الخلفاء العباسيين عامة والخليفة المستظهر بالله خاصة من الخلافات بين أفراد الأسرة السلجوقية ، أن يعترف وينحاز لمن ترجح كفته على الآخر ، كما يتضح لنا أن دوره كان سلبيا من تلك النزاعات والخلافات بين السلاجقة بل ونرى أنه باعترافه لمحمود بن محمد سلطانا للسلاجقة ونقض عهده لسنجر كان من الأسباب الرئيسية في نشوب القتال بين سنجر وابن أخيه .

(١) الحسيني : زبدة التواريخ ، ص ١٧١ - على إبراهيم حسن : التاريخ الاسلامي العام ،

مكتبة الفلاح ، الكويت ، ومكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ص ٤٦٥ . .

(٢) ابن الجوزي : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ١٧٨ - العيني : عقد الجمان ، ج ١٢ ، ورقة ٩٨

(٣) عن الحرب بين سنجر ومحمود انظر : الرسالة ، الفصل الثاني .

(ب) علاقة السلطان سنجر بالخليفة المسترشد بالله

(٥١٢-٥٢٩هـ/١١١٨-١١٣٥م)

منذ أن تولى المسترشد بالله بن المستظهر بالله الخلافة العباسية (٥١٢-٥٢٩هـ/١١١٨-١١٣٥م) بدأ العمل والكفاح من أجل استرداد نفوذ وهيبة الخلافة العباسية ، واسقاط نفوذ السلاجقة ، وقد أظهر عدم رضاه عن السلاجقة بسوء أفعالهم بهذا النص حيث قال : "فوضنا أمورنا الى آل سلجوق فبغوا علينا ، فطال عليهم الأمد فقتل قلوبهم وكثير منهم فاسقون"^(١) ، فقام بأعمال اصلاحية في المجتمع جعلت الفقهاء ورجال الدين يؤيدونه ويناصرونه على تلك الأعمال الاصلاحية المتمثلة في اغلاق بيوت الفسق والفساد ، والغاء حوانيت الخمر وتتبع المفسدين مما حبه الى الفقهاء ورجال الدين ، وكان هدفه من وراء هذه الأعمال الاصلاحية تقوية المجتمع وصيانتها اضافة الى ضرب قوة السلاجقة .

ففى سنة ٥١٣هـ/١١١٩م عزل الخليفة المسترشد بالله القاضى أبا على الحسن بن ابراهيم الفارقي^(٢) عن قضاء واسط ، وولى أبا المكارم على بن أحمد البخارى^(٣) .

وفى شوال من هذه السنة بعث السلطان سنجر هدايا الى الخليفة حملها القاضى الهروى ، فاستقبله وزير الخليفة أحسن استقبال وأحضره الى ديوان الخلافة فسلمها للخليفة^(٤) .

-
- (١) نظامى عروضى سمرقندى : جهار مقالة ، تحقيق محمد عبد الوهاب القزوينى ، الطبعة الأولى ، مطبعة لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ١٣٦٨هـ/١٩٤٩م ، ص ٣١ .
- (٢) القاضى أبو على حسن بن ابراهيم الفارقي : ولد بمدينة ميمافارقين سنة ٤٢٣هـ/١٠٤٠م وتفقه على محمد بن بيان الكاذوربى وابن الصباغ وحفظ عليه الشامل ، وصفاته أنه كان ورعا زاهدا صاحب حق ، مجودا يحفظ الكتابين ، تولى قضاء مدينة واسط مدة من الزمن وتوفى بها فى محرم سنة ٥٢٨هـ/١١٣٤م وعمره كان ٩٥ عاما تفقه عليه القاضى ابن عصرون .
- انظر سبط ابن الجوزى : مرآة الزمان ، ج ٢ ، ص ٦٧٨ .
- (٣) أبو المكارم على بن أحمد البخارى : تولى قضاء واسط ، توفى سنة ٥٣٠هـ/١١٣٦م انظر سبط ابن الجوزى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٧٨ .
- (٤) سبط ابن الجوزى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٦٧٨ ، ٦٧٩ .

وكان السلطان سنجر يهدف من وراء ذلك الى تحسين علاقته بالخليفة العباسى المسترشد بالله ، وفي سنة ١١٢٠/٥١٤م خطب ببغداد للسلطان سنجر ولابن أخيه محمود بن محمد ، ولقب سنجر بعرض الدولة ، ومحمود بجلال الدولة (١).

وفي سنة ١١٢١/٥١٥م كاتب الخليفة العباسى المسترشد بالله ايلغازى (٢) يأمره بابعاد ديبس بن صدقة وفسخ الكتاب الذى عقده على ابنته (٣).

وفي نفس السنة بعث السلطان سنجر القاضى أبا سعد الهروى الى بغداد ليكون هيئة أمام سيف الدولة ديبس بن صدقة بناء على طلب الخليفة المسترشد بالله ، وعندما انتهت مهمته عاد برسالة للسلطان سنجر من الخليفة ومعه خلة الخليفة وهدايا (٤).

وفي سنة ١١٢٣/٥١٧م أراد الخليفة العباسى أن يبرز هيئة وقوة الخلافة العباسية فضرب على يد ديبس بن صدقة صاحب الحلة لأنه كان مصدرا خطرا على الخلافة العباسية ومصدرا للفتنة والقلق ، فأرسل ديبس بن صدقة رسالة الى الخليفة المسترشد بالله يهدده بارسال جنوده لقتاله وتخريب بغداد ، فانتهاز الخليفة ذلك الموقف ووجد أن الفرصة سانحة أمامه لظهار قوة الخلافة العباسية فجهز جيشا وعبر نهر دجلة لقتال ديبس بن صدقة ، فكان النصر حليفا للخليفة العباسى المسترشد بالله ولجأ ديبس الى الفرار واستقر به

(١) سبط ابن الجوزى : المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ٧٠٢ .

(٢) ايلغازى : هو نجم الدين ايلغازى بن اوثق ، قام بغزوات ضد الفريج سنة ١١١٥/٥١٣م وتوفى في شهر رمضان بميفارقين سنة ١١٢٢/٥١٦م ، وتولى ابنه حسام الدين غرناش بعده .

انظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٨ ، ص ٢٨٨ ، ٢٠٩ .

(٣) ابن تفرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٢٢١ .

(٤) سبط ابن الجوزى : مرآة الزقان ، ج ٢ ، ص ٧٢٢ .

المقام عند طغرل بن السلطان محمد (١).

وفي نفس السنة أمر المسترشد بالله ببناء سور بغداد ، ويعد هذا من الأعمال الجليلة للخليفة العباسي المسترشد بالله ، حيث يحمى هذا السور محاولات الاعتداء على البلاد (٢).

وفي جمادى الأولى من سنة ١١٢٤م / ٥١٨هـ تكاملت الدور التي شرع الخليفة العباسي المسترشد بالله في بنائها المطللة على حافة دجلة من أجل زواجه من ابنة السلطان سنجر ، وكان الخليفة قد أرسل القاضي أبا سعد الهروي ليخطب له ابنة السلطان سنجر ، وهو أيضا المتولى كتابة عقد الزواج ، وفي رجب من نفس السنة تقدم وابن الأنباري الى السلطان سنجر لاحضار ابنته زوجة المسترشد بالله (٣).

وفي سنة ١١٢٥م / ٥١٩هـ كانت البداية الفعلية للنزاع بين الخلافة العباسية والدولة السلجوقية ، ويرجع السبب في هذا النزاع الى الدور الذي لعبه دبيس بن صدقة في اغراء طغرل في طلب السلطنة ، ليحقق هدفه وهو الانتقام من الخليفة المسترشد بالله ، ولقد ذكرنا ذلك فيما سبق وقد كان لقتال الخليفة المسترشد بالله لطغرل أثر طيب في نفس السلطان محمود ، ولهذا أرسل اليه رسالة يشكره ويظهر له الطاعة . ويتبين من نص هذه العبارة "قد عملت مافعلت لأجلى ، وأنا أخدمك وصائر اليك" ، ويتضح من ذلك مدى الاتفاق بين الخليفة والسلطان محمود .

وفي سنة ١١٢٦م / ٥٢٠هـ اتفق كل من الخليفة العباسي المسترشد بالله والسلطان محمود على السلطان سنجر ، وحينما علم السلطان سنجر بهذا الاتفاق كتب الى السلطان محمود يشككه في نوايا الخليفة المسترشد بالله قائلاً له : (ان الخليفة قد عزم على أن يكر بى وبك فاذا اتفقتما على فرغ منى

(١) عن هذا القتال انظر الرسالة ، الفصل الثاني .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٨ ، ص ٣١٤ .

(٣) ابن الجوزي : المنتظم ، ج ٩ ، ص ٢٥٠ . (كان يقصد من وراء هذا الزواج تحسن العلاقات السياسية والاشترك في الحكم أكثر مما هو زواج في حد ذاته) .

وعاد اليك ... ويجب بعد هذا أن تمضى الى بغداد ومعك العساكر فتقبض على ديبس بن صدقة ، وتقول للخليفة أنا سيفك وأنت تعود على دارك على ماجرت به عادة آباءك .. والا لم يبق لك ولاى معه حكم(١) .

ومن هنا يتبين أن فحوى الرسالة بمثابة النصيحة والتوجيه للسلطان محمود بعدم الانصياع للخليفة المسترشد بالله لأنه يهدف الى الايقاع بينهما ليتخلص منهما الواحد تلو الآخر ، ومن ثم يقضى على النفوذ السلجوقى .

فما كان من السلطان محمود الا أن استجاب لطلب عمه السلطان سنجر ورجع عما عزم عليه ، اضافة الى ما أوقعه برنقش الزكوى من فتنة فى نفس السلطان محمود من استيلاء الخليفة على بغداد ، فعزم السلطان محمود على المسير الى بغداد ، وأرسل اليه الخليفة يطلب منه عدم الدخول الى بغداد لقلّة الأوقات وسوء الأحوال . ولم يصغ السلطان محمود الى ما طلبه الخليفة منه حيث دخل بغداد فى ذى الحجة من نفس السنة ، وكان ذلك من أكبر العوامل التى بدلت الموقف . ، وقد تحدثت عن ذلك فيما سبق .

وفى المحرم من سنة ٥٢١هـ / ١١٢٧م كان القتال مازال دائرا بين الخليفة المسترشد بالله والسلطان محمود ، واضطر الخليفة فى نهاية الأمر أن يقبل الصلح الذى دعاه اليه السلطان محمود ، واعتذر السلطان محمود عما بدر منه وعاد الى همذان(٢) .

وفى سنة ٥٢٥هـ / ١١٣١م وجد الخليفة المسترشد بالله الفرصة سانحة له كى يحقق مايسعى اليه وذلك بموت السلطان محمود فى هذه السنة ، كما حدث نزاع بين داود بن محمود وعمه مسعود من أجل السلطنة ومن ثم عادت الخلافات بين أفراد البيت السلجوقى ، وأرسل كل منهما يطلب

(١) ابن الجوزى : المنتظم ، ج ٩ ، ص ٢٥٤، ٢٥٥ .

(٢) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٨ ، ص ٣٢١، ٣٢٢ - ابن الجوزى : المنتظم ، ج ٩ ، ص ٢٥٥ - ابن كثير : البداية والنهاية ، ج ١٢ ، ص ١٩٥، ١٩٦ - راجع الرسالة الفصل الثانى .

السلطنة لنفسه من الخليفة كما ذكرنا ذلك سابقا ، الا أن الخليفة أراد أن يتفاهم بينهما الخلاف ويزداد ، فلم يستجب لهما ، وكتب الى السلطان سنجر ألا يوافقهما على طلب السلطنة ، وازدادت الخلافات أكثر عندما ظهر منافس جديد طالبا السلطنة لنفسه وهو سلجوق شاه عم داود بن محمود . ونتج عن هذه النزاعات أن تقاوت كل من مسعود و سلجوق شاه ثم اصطلحا على أساس أن يصبح مسعود سلطانا على سلاجقة العراق و سلجوق شاه وليا لعهدة ولكن هذا الصلح لم يكن نهاية النزاع بين السلاجقة ومن ثم تدخل السلطان سنجر ليضع حدا لهذا النزاع حيث كان معه طغرل واشتبكا في حرب ضد مسعود ، وانتهت بهزيمة مسعود . ثم عين السلطان سنجر طغرل سلطانا على سلاجقة العراق وخطب له في البلاد . وبعد أن استقر طغرل في السلطنة لم يرق ذلك لابن أخيه داود بن محمود حيث خرج عليه عمه طغرل وهزمه (١) .

وفي سنة ١١٣٢/٥٥٢٦م اتجه عماد الدين زنكى ومعه ديبس بن صدقة الى بغداد لأن السلطان سنجر طلب منهما قصد العراق والاستيلاء عليها ، ولما علم الخليفة المسترشد بالله بذلك عبر الى الجانب الغربى والتقى في السابع عشر من رجب من نفس السنة في حصن البرامكة (٢) ، وهزم عماد الدين زنكى ميمنة الخليفة وانهزم ديبس بن صدقة حينما حمل عليه الخليفة ، وأراد عماد الدين زنكى أن يصمد الا أن الناس تفرقت من حوله ، فانهزم هو أيضا من الخليفة المسترشد بالله (٣) .

وفي سنة ١١٣٣/٥٥٢٧م أراد الخليفة الانتقام من عماد الدين زنكى حاكم الموصل والسبب في ذلك أن الخليفة المسترشد بالله أرسل الامام أبا

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٨ ، ص ٣٣٦، ٣٣٧ - البندارى : تاريخ دولة

آل سلجوق ، ص ١٤٨، ١٤٩ - المقرئى : السلوك ، ج ١ ، ص ٣٥ .

(٢) حصن البرامكة : لم يذكر ابن الأثير عن هذا الحصن سوى انه كائن بالعراق .

انظر الكامل في التاريخ ، ج ٨ ، ص ٣٣٧ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٣٣٧ - القلقشندى : مآثر الالافه ، ج ٢ ،

الفتوح الاسفراييني^(١) الى عماد الدين زنكى برسالة شديدة اللهجة ، وقبض عماد الدين زنكى على الامام الاسفرائيني وأهانته اهانة بالغة وأعادته الى الخليفة ، وحينئذ سار المسترشد بالله من بغداد الى الموصل في ثلاثين ألفاً من الجند ، وحينما علم بذلك عماد الدين زنكى رحل عن الموصل مع بعض جنوده وترك الباقي بالموصل . وقد حاصر الخليفة العباسي المسترشد بالله مدينة الموصل على الرغم من العرض الذى عرضه عماد الدين زنكى على الخليفة من التحف والأموال ، الا أن الخليفة اضطر الى فك الحصار عن الموصل وعاد الى بغداد ومن ثم لم يظفر منها بشيء^(٢).

وهناك عدة احتمالات ترجح اضطرار الخليفة العباسي المسترشد بالله الى فك الحصار عن الموصل والعودة الى بغداد وهى مايلي^(٣):

- (١) أن عماد الدين زنكى حصن الموصل بالسكر وشحنها بالمؤن والعتاد ، ومن ثم عجز الخليفة عن اقتحام أسوارها .
- (٢) خرج عماد الدين زنكى من الموصل قبل حصار جيش الخليفة لها ، وقام بقطع المدد عن جيش الخليفة مما أجبر الخليفة المسترشد بالله على فك الحصار .

(١) هو : محمد بن الفضل ، ويعرف بابن المعتمد ، الواعظ المتحكم ، ولد سنة ١٠٨١/٥٤٧٤م باسفرايين ، وتقع بخراسان ، رحل الى بغداد ، وقام بنشر المذهب الأشعري وبالغ في التعصب للمذهب ، فأخرج من بغداد ، ثم ذهب الى خراسان فأدركته الوفاة في ذى الحجة سنة ١١٤٣/٥٥٣٨م .

انظر ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٨ ، ص ٣٤٠ - الأصبهاني : خريدة القصر وجريدة العصر ، تحقيق محمد بهجة الأثرى ، مطبعة المجمع العلمى العراقى ، ١٩٦٤/١٣٨٤م ، ج ٢ ، ص ٣٤٧ .

(٢) ابن الأثير : التاريخ الباهر فى الدولة الأتابكية ، ص ٤٧-٤٩ - أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٧ - ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٥٤ .

(٣) محمد بن مسفر بن حسين الزهراني : نفوذ السلاجقة السياسى فى الدولة العباسية ، ص ١٣١ .

(٣) علم المسترشد بالله أن مسعود قد نقض عهده وسار بجيش كبير الى بغداد للاستيلاء عليها أثناء تواجده بالموصل فاضطر الى العودة . وفي نفس هذه السنة توجه مسعود الى همذان لمحاربة أخيه طغرل وانتصر عليه ودخل بغداد حيث اعترف به الخليفة العباسي المسترشد بالله سلطانا على سلاجقة العراق وأمر له بالخطبة على المنابر^(١) كما مر بنا سابقا . وفي سنة ١١٣٤/٥٥٢٨م أرسل عماد الدين زنكى الى الخليفة المسترشد بالله رسولا يطلب منه الصلح ، واشترط الخليفة أن يظل عماد الدين زنكى ببغداد بصفة دائمة ، وقصد الخليفة من هذا الشرط التحقق من نواياه واخلاصه له . ووافق عماد الدين زنكى على شرط الخليفة ، وهذا الشرط الذى حدده الخليفة يدل على حنكته وخبرته بأحوال السلاجقة وصراعاتهم الأسرية ، ومن ثم نتج عن هذا الصلح التفرغ للسلاجقة ، واستطاع أن يحول عداء عماد الدين زنكى الى ولاء .

وفي نفس السنة ضعفت سلطة مسعود بعدما انضم معظم جنوده الى أخيه طغرل ، وقد استغل المسترشد بالله هذا النزاع القائم بين مسعود وطغرل فدعا مسعود الى بغداد وظل يحرضه على قتال طغرل ويعدده بمساعدته والسير معه لقتال طغرل غير أن مسعود لم يجب الخليفة الى طلبه لادراكه نية وقصد الخليفة .

وقد تجدد الخلاف مرة أخرى بين الخليفة ومسعود ، لأن مسعود رفض تسليم الأمراء الموالين لطغرل الذين فروا اليه ، فغضب المسترشد بالله من مسعود وأمره بالرحيل عن بغداد ، وخرج منها في شهر ذى الحجة من نفس السنة واضطر الخليفة لمصالحة مسعود عندما علم بأن طغرل خرج على رأس جيشه قاصدا العراق ليقتل معا ضد خصمهما طغرل^(٢).

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٨ ، ص ٣٣٩، ٣٤٠ - ابن خلدون : المعبر ، ج ٥ ، ص ٥٩ .

(٢) محمد بن مفر بن حسين الزهراني : نفوذ السلاجقة السياسي في الدولة العباسية ، ص ١٣٢، ١٣٣ -

وبوفاة طغرل بن محمد في محرم سنة ٥٢٩/١١٣٥م سار مسعود الى همذان واستولى عليها وتولى الحكم بها في بداية هذه السنة . وقامت الحرب في نفس السنة بين مسعود والخليفة المسترشد بالله ، ويرجع السبب في ذلك الى أن الأمراء الذين لجأوا اليه خوفا من الخليفة المسترشد بالله حرضوه لقتال الخليفة لاختضاعه للنفوذ السلجوقي ومن ثم استجاب السلطان مسعود لهم حيث جهز جيشه لمهاجمة بغداد .

وهناك سبب آخر في هذا القتال وهو أن السلطان مسعود حينما استقرت له الأمور في همذان تركت جماعة من الأمراء وفروا الى الخليفة المسترشد بالله وحرضوه على قتال السلطان مسعود بحجة أن مسعودا لم يكن لديه استعداد للقتال مما شجع الخليفة لاعداد العدة للخروج لقتال مسعود وهو واثق من النصر^(١) . وقد ذكرت تفاصيل ذلك فيما سبق .

وسار مسعود معه الخليفة معتقلا الى مراغة . وقد استولى جيش مسعود على أموال الخليفة وغنائم كثيرة وأنزل مسعود الخليفة في خيمة منفردة وثار الناس وانتشرت الفتن في بغداد بين أهلها وأتباع مسعود . ووصل رسول^(٢) السلطان سنجر معه رسالة لمسعود يلومه ويحذره عاقبة ما وقع منه في حق الخليفة ويأمره بالاحسان اليه وأن يعيده الى دار خلافته معززا مكرما ، ويرد له أمواله ، واستجاب مسعود لطلب عمه ، فأقام للخليفة سرادقا عظيما

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٨ ، ص ٣٤٧، ٣٤٨ - ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٥٥ - القلقشندی : مآثر الانافة ، ج ٢ ، ص ٢٦ .

Claude-Cohér, per-ottoman-Turkey, London, 1966, p.46 .

(٢) هو برنقش القارى خوان ، كان رسول السلطان سنجر الذى حمل لا مسعود رسالتين . الأولى سرية ورد فيها "لماذا أنت في هيجان المعركة لم تقتل الخليفة؟" أما الرسالة الثانية مفتوحة ورد فيها "في اللحظة التي تقرأ فيها يامسعود هذه السطور ، توجه حالا عند أمير المؤمنين وقبل الأرض أمامه واطلب العفو ، والا فستتوم القيامة . لذلك أرجع الخليفة بكل تبجيل الى عرشه وسلمه دببى بن صدقة حتى يعاقبه الخليفة بنفسه ، لأنه في كل هذه المسائل هو المخطيء فقط" .

انظر الحسينى : زبدة التواريخ ، ص ٢٠٩ .

وقبل الأرض بين يديه ، وعزم بصدق على أن يعيده الى بغداد (١).
فوكل مسعود من يقوم بخدمة الخليفة على أكمل وجه ، وترددت
رسائل بينه وبين الخليفة لتقرير قواعد الصلح بينهما وهو ماتم وفق الشروط
التالية (٢):

(١) مال يؤديه الخليفة لمسعود .

(٢) ألا يعود الخليفة في جمع العساكر .

(٣) ألا يخرج الخليفة من داره .

ولم يبق الا عودة الخليفة الى بغداد ، ووافق ذلك الوقت وصول
رسول من السلطان سنجر ، فانشغل الناس بذلك وخرج مسعود الى استقباله
وكذلك فارق الخليفة بعض من كان موكلا بخدمته ، فهجم على خيمة الخليفة
أربعة وعشرون رجلا من الاسماعيلية (٣) ودخلوا عليه فقتلوه ومثلوا بجسده
أبشع تمثيل ، وكان مقتله في السابع عشر من ذي القعدة سنة ٥٢٩هـ / ١١٣٥ م ،
عن عمر يناهز ثلاثة وأربعين سنة وثلاثة أشهر ، وكانت مدة خلافته سبع
عشرة سنة (٤).

وهناك روايات مختلفة حول من كان وراء قتل الخليفة العباسي
المسترشد بالله .

(١) ابن كثير : البداية والنهاية في التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٢٠٨ - ابن الطقطقي : الفخرى
في الآداب السلطانية والدول الاسلامية ، ص ٣٠٣ - ابن الكازروني : مختصر الدول
ص ٢٢٢، ٢٢١ .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٨ ، ص ٣٤٨ - أبو الفداء : المختصر ، ج ١ ، ص ٩ -
ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٥٤ - ابن خلدون : العبر ، ج ٥
ص ٦١، ٦٠ .

(٣) عن الاسماعيلية انظر الفصل الخامس من الرسالة .

(٤) الأصبهاني : البستان الجامع لأهل الزمان ، ورقة ١٠٣ - ابن الأثير : الكامل في
التاريخ ، ج ٨ ، ص ٣٤٩، ٣٤٨ - ابن الوردي : تنمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٦٢ -
ابن الكازروني : مختصر التاريخ ، ص ٢٢٢ - ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ،
ص ٣٥٥ .

الرواية الأولى (١): ترجح أن مسعوداً واطماً الاسماعيلية ودسهم لقتل الخليفة العباسي بسبب خونه على نفسه من الخليفة ، لأنه استطاع أن يجمع الجيوش ، فظاهر بأنه يحسن الى الخليفة بينما أضمر وذبر خفية حيلة لقتله على يد الباطنية .

الرواية الثانية (٢): وهى تبرئة مسعود من الاتهام الموجه اليه بقتل الخليفة ، وان الاتهام يجب أن يوجه الى ديبس بن صدقة ، لما كان بينهما من خلافات ونزاعات ومن ثم أمر بقتل ديبس فى الرابع عشر من شهر ذى الحجة سنة ١١٣٥/٥٥٢٩م فى مدينة خوى بأذربيجان .

الرواية الثالثة (٣): ذكر بعض المؤرخين أن السلطان سنجر كان وراء مقتل الخليفة بأن دس أولئك الاسماعيلية ضمن فرقة من الجيش كانت ترافق حامل الرسالة للخليفة وذلك بسبب ما كان بينهما من عداوة نتيجة لموقف الخليفة السلمى من تحقيق رغبة السلطان سنجر فى الاعتراف بطغرل سلطانا على سلاجقة العراق ، وأيضا لإدراك السلطان سنجر أن موقف الخليفة من السلاجقة سيؤدى حتما الى زعزعة دولتهم والعمل على اسقاطها ، وأن الحل الأمثل هو التخلص نهائيا من الخليفة .

(١) ابن الطقطقى : الفخرى فى الآداب السلطانية ، ص ٣٠٣ - السيوطى : تاريخ الخلفاء ص ٤٣٣ .

(٢) الحسينى : زبدة التواريخ ، ص ٢٠٩ .

(٣) البندارى : مختصر دولة آل سلجوق ، ص ١٦٥ .

(ج) علاقة السلطان سنجر بالخليفة الراشد بالله

(٥٢٩-٥٣٢هـ/١١٣٥-١١٣٨م)

بعد مقتل الخليفة المسترشد بالله على يد الباطنية ، بويغ ابنه الراشد بالله بالخلافة ، وكان أبوه قد عهد له بولاية العهد في حياته ، ولما قتل جددت له البيعة يوم الاثنين الموافق السابع والعشرين من ذى القعدة من سنة ١١٣٥/٥٢٩م ، وقد قام ببيعة السلطان مسعود بن محمد^(١).

غير أن السلطان مسعود لم يكن راغبا في خلافة الراشد بالله ، لكونه سيسلك نفس سياسة أبيه العدائية للسلاجقة والسعى لتحرير الخلافة من نفوذهم ، وقد وجد السلطان مسعود سببا للاطاحة بالخليفة الراشد بالله ، فأرسل برنقش الزكوى سنة ١١٣٦/٥٣٠م يطالبه بدفع المبلغ^(٢) الذى كان المسترشد بالله قد تعهد بدفعه لهم ، ورفض الراشد بالله دفع المبلغ الذى طالبه به السلطان مسعود بحجة أن الاتفاق كان يتضمن عودة والده الى بغداد سالما ، بينما ماحدث كان مخالفا لهذا الاتفاق ، حيث قتل المسترشد بالله ونهبت أمواله . واقتحم برنقش الزكوى دار الخلافة بعدما علم أن الراشد بالله لن يدفع الأموال ، كى يستولى على الأموال ، وغضب الخليفة وجمع العساكر وهاجم برنقش الزكوى ومن معه وطردهم خارج بغداد .

واستشار الخليفة كبار رجال دولته في موقفه من السلطان مسعود ، فأشاروا عليه بمحاربتة ، ومنع الخليفة ذكر اسم مسعود في الخطبة ، وبدأ يجمع الجموع استعدادا لمحاربتة ، ومن ثم قوى جانب الراشد بالله لانضمام كل من داود بن السلطان محمود على رأس جيش من آذربيجان ، وعماد

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٨ ، ص ٣٤٩ - أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٠ - القلقشندي : مآثر الانافة ، ج ٢ ، ص ٣٢ .

(٢) ورد عند البعض أن المبلغ المطلوب دفعه ثلثمائة ألف دينار ، وعند آخرين سبعمائة ألف دينار كما طلب منه دفع مبلغ ثلثمائة ألف دينار من قبل الراشد خلال توليه الخلافة ، وقد استشار الخليفة رجال دولته وأشاروا اليه باجابة السلطان مسعود بالآتي "أما الأموال المضمونة فلما كانت لاعادة الخليفة الى داره سالما وذلك لم يكن وأنا مطالب بالشار ... وماينتنا الا السيف " . انظر الحسيني : زبدة التواريخ ، ص ٢١٠ . ورد المبلغ عند ابن الأثير ، وابن خلدون أربعمائة ألف دينار . انظر الكامل في التاريخ ، ج ٨ ، ص ٣٥٢ - العبر ، ج ٥ ، ص ٦٠ .

الدين زنكى على رأس جيش الموصل ، وكل من صاحب قزوين برنقش بزدان ، وصاحب أصبهان البقش الكبير ، وصاحب الحلة صدقة بن ذبيس ، وخطب لداود بن محمود ليضمن وقوفه بجانب جيش الخلافة (١).

وعلم السلطان مسعود أن الخليفة يستعد لقتاله ، فسار الى بغداد وحاصرها قرابة خمسين يوما ولم يظفر بها ، فرجع الى همذان حيث وصلته امدادات عسكرية من واسط ، ثم عاد مسعود مرة أخرى الى بغداد . ونتج عن ذلك زعزعة في صفوف جيش الخليفة ، فانسحب داود بجيشه الى آذربيجان ، وانسحب كذلك عماد الدين زنكى الى الموصل وصحب معه الخليفة الراشد بالله . ودخل مسعود بغداد واستولى على دار الخلافة ، وبدأ يخطط لخلع الخليفة من الخلافة ويولى المقتضى لأمر الله محمد بن المستظهر بالله ، فجمع القضاة والفقهاء وعرض عليهم اليمين الذى حلف به ، ويخطب يده والتي يتعهد فيها بعدم قتاله وان خالف ذلك فقد خلع نفسه ، فأفتوا بخلعه (٢) . ولقد تحدثت عن ذلك مفصلا في الفصل الثانى .

ولما علم الخليفة بخلعه كاتب السلطان سنجر شاكيا السلطان مسعود وطالبا العون والمساعدة ، وعلم الخليفة الراشد بالله أنه لن يستجاب الى طلبه (٣) .

وقيل ان عماد الدين زنكى تخلى عن الخليفة الراشد بالله بسبب وصول رسالة من السلطان سنجر يأمره فيها باخراج الخليفة من الموصل

(١) ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون ، ج ٥ ، ص ٦١ - ابن كثير : البداية والنهاية في

التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٢١٠ - العيني : عقد الجمان ، ج ١٢ ، ورقة ٢٨ .

(٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٨ ، ص ٣٥٤ - الذهبي : كتاب دول الاسلام ،

ج ٢ ، ص ٥٢، ٥١ - ابن العبري : تاريخ مختصر لدول ، ص ٣٥٥، ٣٥٦ - ابن

الوردى : تمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٦٤، ٦٣ .

(٣) ورد عند الحسيني نص جواب السلطان سنجر : " أن قد آبت عساكر المسلمين الى

جانب جيحون ، وأيضا فان حزب الله هم الغالبون في العشرين من شهر رمضان

سنة احدى وثلاثين وخمس مائة " . انظر : زبدة التواريخ ، ص ٢١١، ٢١٢ .

وعدم مساعدته . وهكذا خرج الراشد بالله من الموصل متجها نحو آذربيجان ومنها الى همذان (١).

وفي الطريق انضم الى الخليفة داود بن محمود وولاية خوارزم وفارس وخوستان ووعدوه أن يساعده ويعاونوه على أن يستعيد الخلافة ، وعلم بذلك السلطان مسعود فسار بجيشه حربهم فهزمهم ومن ثم تفرقوا من حول الخليفة وسار الراشد بالله الى أصفهان حيث قتل بها على يد نفر من الخراسانية (٢) في شهر رمضان سنة ١١٣٨/٨٥٣٢م (٣).

وقد اختلف المؤرخون عن كيفية مقتله نوردها فيما يلي :

- (أ) أنه مات مسموما (٤).
- (ب) أنه قتل على يد بعض خدامه (٥).
- (ج) أنه قتل على يد جماعة من الباطنية هاجموا في طريقه الى أصفهان (٦).
- (د) أنه قتل بيد بعض جنوده (٧).
- و، من هنا يتبين أن المؤرخين أجمعوا على أنه مات مقتولا ، الا أنهم اختلفوا على طريقة قتله وعلى يد من قتل .

-
- (١) ابن الأثير : التاريخ الباهر ، ص ٥٤،٥٣ .
- (٢) المقصود بالخراسانية الباطنية. انظر ابن الأثير : المصدر السابق ، ص ٥٥ .
- (٣) ابن الأثير : المصدر السابق ، ص ٥٥،٥٤ - الأصبهاني : البستان الجامع لأهل الزمان ورقة ١٠٣ - ابن خلدون : العبر ، ج ٥ ، ص ٦٣ - ابن الوردي : تمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٦٧ .
- (٤) ابن الجوزي : المنتظم ، ج ١٠ ، ص ٧٦ - الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ٥٣ .
- (٥) ابن الجوزي : نفس المصدر والصفحة - ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٨ ، ص ٣٦٢ - ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٥٧ .
- (٦) الراوندي : راحة الصدور ، ص ٣٣١ .
- (٧) ابن الوردي : تمة المختصر ، ج ٢ ، ص ٦٧ - الحسيني : الدولة السلجوقية ، ص ١٠٩ .

(د) علاقة السلطان سنجر بالخليفة المقتفى لأمر الله

(٥٣٢-٥٥٥٢/١١٣٨-١١٥٥م)

آلت الخلافة للخليفة العباسي المقتضى لأمر الله بعد خلع الراشد بالله في الثامن عشر من ذى الحجة سنة ١١٣٨/٥٥٣٢م وخطب له يوم الجمعة عشرين ذى الحجة من نفس السنة (١).

ويعتبر الخليفة المقتضى لأمر الله آخر خليفة عباسي يتزوج من السلاجقة حيث تزوج من فاطمة (٢) بنت السلطان محمد بن ملكشاه أخت السلطان مسعود ، غير أن هذا الزواج لم يحل دون الخلافات والتزاجات بينه وبين السلاجقة (٣).

وكما مر بنا سابقا أن السلطان مسعود استولى على جميع مافي دار الخلافة ببغداد ، ولقد بايع الخليفة بشرط ألا يكون لديه خيل أو عدة سفر كذلك ألا يضم إليه أى مملوك تركي ومن ثم كان معظم غلمانه من الروم اضافة الى أن مسعودا ضيق الخناق على الخليفة ماليا حيث جعل دخل الخليفة قاصرا على ما يمتلكه من عقار .

وقد ساءت العلاقات بين الخليفة والسلطان مسعود وذلك بعد أن أرسل مسعود الى الخليفة يطلب منه مزيدا من المال ، ولكن المقتضى لأمر الله أجابه أنه لا يمتلك درهما واحدا ، وأنه قد أخذ جميع مافي دار الخلافة بما في ذلك الأثاث ، فمن أين نأق له بالمال؟ وأن الخليفة عاهد الله تعالى ألا يأخذ درهما من الناس ظلما أو بغير وجه حق (٤).

(١) ابن العمراق : الأنباء في تاريخ الخلفاء ، ص ٢٢٥ - ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ، ص ٣٥٧ - السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٤٣٧ .

(٢) هي : فاطمة خاتون بنت محمد ملكشاه ، كان زواجها في رجب سنة ١١٣٧/٥٥٣١م والصداق مائة ألف دينار وكان الوكيل في قبول النكاح وزير الخليفة (علي بن طراد الزينبي والوكيل عن السلطان مسعود وزيره الزركزبي) .

انظر ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٨ ، ص ٣٥٦ .
(٣) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ١٧٩ - الذهبي : دول الاسلام ، ج ٢ ، ص ٥٣ - حسن ابراهيم حسن وآخر : النظم الاسلامية ، مكتبة النهضة المصرية ، القاهرة ، ص ٧٠ - علي ابراهيم حسن : التاريخ الاسلامي العام ، ص ٤٦٥ .

(٤) محمد ماهر حمادة : الوثائق السياسية والادارية ، ص ٤٤١،٧٤ - محمد بن مسفر بن حسين الزهراني : نفوذ السلاجقة السياسي في الدولة العباسية ، ص ١٤٦ .

ورد النص كالتالى : "فقال المقتضى : مارأينا أعجب من أمرك! أنت تعلم أن المسترشد سار اليك بأمواله فجرى ماجرى ، وأن الراشد ولى ففعل ما فعل ، ورحل وأخذ ماتبقى ولم يبق الا الأثاث ، فأخذته كله ، وتصرفت فى دار الضرب ، وأخذت التركات والجوالى ، فمن أى وجه نقيم لك هذا المال؟ ومابقى الا أن نخرج من الدار ونسلمها ، فانى عاهدت الله أن لاأخذ من المسلمين حبة ظلما" . فترك السلطان الأخذ من الخليفة ، واتجه الى جباية الأملاك من الناس ، وخاصة التجار(١) .

وفى سنة ١١٤١/٥٣٥م وصل رسول من السلطان سنجر الى الخليفة المقتضى لأمر الله يعيد اليه بردة النبي صلى الله عليه وسلم والقضيب(٢) ، وكان سنجر قد أخذهما من المسترشد بالله(٣) .

وفى سنة ١١٤٢/٥٣٦م انهزم السلطان سنجر من القره خطائين فى موقعة قطوان(٤) ونتج عن ذلك سوء الأحوال الاقتصادية وازداد تبرم وغضب الناس وأصبحت الأمور لاتسير فى مصلحة السلاجقة بصفة عامة ، وقد دفع ذلك المقتضى لأمر الله أن يستعد بجمع الجيش والسلاح ويعزز قوته العسكرية(٥) .

(١) السيوطى : تاريخ الخلفاء ، ص ٤٣٧-٤٣٨ .

(٢) فى وصف ركب الخليفة المقتدر العباسى فى سنة ٩٣٢٠/٣٢٢م لقتال مؤنس (خرج من دار فى أكمل لباس وموكب ، فكان عليه خفتان ديباج فضى وعمامة سوداء ، وعلى كتفه وصدرة وظهره البردة النبوية ، وهو متقلد بذى الفقار سيف الرسول صلى الله عليه وسلم ، وحمائله آدم أحمر ، وفى يده اليمنى الخاتم والقضيب) . انظر آدم متر : الحضارة الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى ، عصر النهضة فى الاسلام ، ج ١ ، ص ٢٥٥ .

والقضيب : هو من الحيزران كان بيد الخليفة .

انظر حسن ابراهيم حسن وآخر : النظم الاسلامية ، ص ٦٩ .

(٣) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج ٨ ، ص ٣٦٩ - ابن الوردى : تنمة المختصر ،

ج ٢ ، ص ٦٩ - أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ١٥ .

(٤) عن الحرب بين سنجر والقره خطائية . انظر الفصل الرابع .

(٥) حسن أحمد محمود وآخر : العالم الاسلامى فى العصر العباسى ، ص ٦٢١ .

وفي سنة ١١٤٧/٥٥٤١م أقام السلطان مسعود ببغداد دارا للضرب (١) فقبض الخليفة على الضراب الذي تسبب في اقامة هذه الدار ، ومن ثم قبض السلطان مسعود على حاجب الخليفة مما أدى الى غضب الخليفة وأغلق المساجد ثلاثة أيام ، فأطلق مسعود سراح الحاجب وأطلق الخليفة الضراب وسكن الأمر بين الخليفة والسلطان (٢).

وفي نفس السنة بعث السلطان سنجر رسولا واعظا الى الخليفة قام بالوعظ ببغداد فكان وعظه مقبولا عند العامة حيث يتركون أعمالهم ويحضرون مجلسه ، كما حضر مجلسه أيضا السلطان مسعود وأمراه (٣). ذكر السيوطي النص التالي : "حضر السلطان مسعود وتعرض الواعظ بذكر مكس البيع وما جرى على الناس ، ثم قال : يا سلطان العالم ، أنت تهب في ليلة لمطرب بقدر هذا الذي يؤخذ من المسلمين ، فاحسبني ذلك المطرب ، وهبه لي ، واجعله شكرا لله بما أنعم عليك فأجاب ، ونودي في البلد باسمقاطه ، وطيف بالألواح التي نقش عليها ترك المكوس ، وبين يديه الدباب ، والبوقات ، وسمرت ولم تزل الى أن أمر الناصر لدين الله بقلع الألواح ، وقال : مالنا حاجة بآثار الأعاجم" (٤).

وفي سنة ١١٤٩/٥٥٤٣م استغل الخليفة النزاع بين السلطان مسعود وجماعة من الأمراء فعمل على تكوين جيش نظامي للخلافة ونجح في ذلك ثم أمرهم باصلاح سور بغداد وترميمه وجفر الخنادق وتحصينها استعدادا للطوارئ (٥)، وكانت نظرته ثاقبة حيث حصل ماتوقعه ، ففي نفس السنة

(١) أي دار ضرب النقود . وكان ضرب النقود من شعائر الخلافة ، وكذلك اقامة الخطبة .

(٢) السيوطي : تاريخ الخلفاء ، ص ٤٣٨ .

(٣) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ١٩ .

(٤) انظر المصدر السابق ، ص ٤٣٨-٤٣٩ .

(٥) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٢١ - محمد بن مسفر بن حسين الزهراني نفوذ السلاجقة السياسي في الدولة العباسية ، ص ١٤٧، ١٤٨ .

سار جماعة من الأمراء الى بغداد ومعهم محمد شاه بن محمود وملكشاه بن محمود محاصرين مدينة بغداد وقد صمموا على خلع السلطان مسعود والانتصار عليه ، فعاثوا في البلاد فسادا وتخريبا وتصدى لهم أهل بغداد للدفاع عنها ولكن قتل الكثير من أهل بغداد وظلوا محاصرين المدينة وطلبوا من الخليفة دفع ثلاثين ألف دينار لهم .

وقد أشار يحيى بن محمد بن هبيرة^(١) ، وهو صاحب ديوان الخليفة آنذاك ، على الخليفة ألا ينصاع لمطالبهم وأن يعمل على تكوين جيش قوى للدفاع وصد خطر الأعداء ، واستجاب الخليفة لرأيه . وقد استحسن المقتضى لأمر الله رأى ابن هبيرة مما جعله يخلع عليه الوزارة ويستوزره في نفس السنة^(٢) ، وخرج الخليفة بجيشه لمحاربة المحاصرين لبغداد ونجح في أن ينتصر عليهم .

(١) يحيى بن محمد بن هبيرة : هو أبو المظفر الوزير عون الدين يحيى بن هبيرة بن محمد بن هبيرة بن سعد بن الحسين ... بن عدنان الشيباني الملقب عون الدين ، وهو من قرية بالعراق تعرف بقرية بنى أوقر ، ولد بها عام ٤٩٩هـ/١١٠٥م ، دخل بغداد في صباه وتلقى العلم بها وجالس العلماء والفقهاء ، وتعلم صناعة الانشاء ، وقرأ التاريخ والأدب وعلوم الدين ، واتصل بالخليفة المقتضى لأمر الله فولاه بعض الأعمال سنة ٥٤٢هـ/١١٤٥م ، فظهرت كفاءته فأعجب به فاستوزره سنة ٥٤٤هـ/١١٤٧م ، وكان يقول ماوزر لبنى العباس مثله ، وهو الذى لقبه بعون الدين ، وكان ابن هبيرة يقوم بشئون الوزارة حكما وسياسة وإدارة أفضل قيام ، ولما توفى المقتضى ببيع المستنجد فأقره بالوزارة ، فاستمر في الوزارة الى أن توفى ببغداد سنة ٥٦٠هـ/١١٦٥م . وله مصنفات كثيرة منها "الايضاح والتبيين في اختلاف الأئمة المجتهدين" ، و"الاشراف على مذاهب الاشراف" ، و"المقتصد" ، و"العبادات" ... الخ .

انظر ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج ٦ ، ص ٢٣٠ - خير ، لدين الزركلى : الأعلام ، ج ٨ ، ص ١٧٥ - الحسينى : زبدة التواريخ ، ص ٢٢٦ ورد فيها أن ولادته عام ٤٩٧هـ/١١٠٣م .

(٢) ابن الأثير : المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٢٥ - البندارى : تاريخ مختصر دولة آل سلجوق ، ص ٢٠٤ - الحسينى : أخبار الدولة السلجوقية ، ص ١٢٠ .

وفي شهر رجب سنة ١١٥٣/٨٥٤٧م توفي السلطان مسعود ، وبموته ضعفت دولة سلاجقة العراق وظهرت فيها الفتن والمنازعات ، ومن ثم لم تقم للسلاجقة قائمة بعد وفاة السلطان مسعود ، بينما المقتضى لأمر الله أصبح له الكلمة الأولى في العراق وقوى نفوذه وسلطانه وبدأ في استرداد امتيازاته ومخصصاته ، كما أخذ من جماعة أصحاب السلطان مسعود أموالهم وممتلكاتهم ، وكان بجانبه وزيره يحيى بن محمد بن هبيرة . وقد اتخذ الخليفة بصفة عامة سياسة تضعف من شأن أمراء السلاجقة وجمع العساكر والأجناد ليقوى جيشه ويصبح في حالة استعداد دائم للقضاء على خصومه (١) . ثم خرج نداء الخليفة في بغداد : " أنه من تخلف من الجند ولم يحضر الديوان ، ويجرى على عادته في اقطاعه أبيح دمه وماله " (٢) .

ويمكن القول أن وفاة السلطان مسعود تعتبر الحد الفاصل للسيطرة الفعلية للسلاجقة بالعراق (٣) .

ولما علم مسعود بلال شحنة بغداد (٤) بوفاة السلطان مسعود هرب الى تكريت في رجب من العام نفسه فقام الخليفة المقتضى لأمر الله بمصادرة داره وديار أصحاب السلطان بجميع ما فيها ، وعزل جميع من عينهم السلطان وعين غلمانا من الروم والأرمن وجعلهم أمراء .

(١) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٣٢٠، ٣١٠ - المقرئزي : كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، ج ١ ، ص ٣٨ - ابن دقماق : الجوهر الثمين في سير الخلفاء والملوك والسلاطين ، تحقيق سعيد عبد الفتاح عاشور ، جامعة أم القرى ، مركز البحث العلمى ، مكة المكرمة ، ص ١٦٨ - حسن أحمد محمود ، وآخرون : العالم الاسلامى في العصر العباسى ، ص ٦٢١، ٦٢٢ .

(٢) محمد مسفر الزهراني : نفوذ السلاجقة السياسى في الدولة العباسية ، ص ١٤٨، ١٤٩ .

(٣) عصام الدين عبد الرؤوف : الحياة السياسية في بلاد الجبل ويزد في عهد الكاكويه

الديلمة ، مجلة المؤرخ العربى ، العدد الثامن عشر ، بغداد ١٩٨١/٨١٤٠٦م ، ص ١٠٣

(٤) مسعود بلال : تولى شحنة بغداد أثناء حكم السلطان مسعود في بغداد ، وكان من

بين الخدم الحصيان الحبشيين الكبار من أمراء دولته . ورد عند الحسينى بلفظ مسعود البلالى . انظر : زبدة التواريخ ، ص ٢٤١ .

وسار مسعود بلال الى الحلة وبسط نفوذه عليها بعد أن قبض على سلاركرد^(١) الذي سير على رأس جيش الى الحلة من قبل السلطان ملكشاه بن محمود ، فلما علم الخليفة بذلك جهز جيشه وعلى رأسه ابن هبيرة ، حيث اشتبك الجيشان في معركة نتج فيها انهزام مسعود بلال من جيش الخليفة ومن ثم عاد الى تكريت^(٢) . ويذكر البعض أن جيش الخليفة بلغ تعداده ستة آلاف جندي صرف عليهم مبلغ وقدره ثلاثمائة ألف دينار مما جعل الجند يبذلوا قصارى جهدهم في القتال ، اضافة الى انضمام أعداد أخرى الى جيش الخليفة حتى يقال أن عدده وصل الى أكثر من اثني عشر ألف جندي^(٣) . ثم توجه مسعود بلال الى همذان حيث محمد شاه وأخذ يهون عليه أمر بغداد وأنه قادر على ضمها اليه في أقصر مدة ، ولم يهتم محمد شاه بكلامه وكان يرسل الخليفة مباشرة ، ولم يوافق الخليفة على الاعتراف به سلطانا ، وعاد مسعود بلال الى تكريت عندما رأى أن وعود محمد شاه لم تحقق ، وكان بها أرسلان شاه بن السلطان طغرل واجتمع عليهم التركمان ووصل الخبر الى المقتضى لأمر الله فجمع جنودا كثيرة وخرج للقائهم في سنة ١١٥٩م/٥٥٤٩م وانتصر عليهم وعاد الى بغداد مظفرا وخلص العراق من مسعود بلال^(٤) .

-
- (١) وردت عند ابن الأثير (سلاکرد) ، واسمه سلارجور بن الزهير بن الكردي ، وهو من كبار الأمراء السلطانية ، دعاه مسعود بلال الى مأدبة بالحلة في الجانب الغربي فاستجاب لذلك ، فقدر مسعود به حيث أوثقه وشد برجليه ثقالة ورماه في الفرات فغرق بالحال ، وأصحابه على شاطئ الفرات لا يستطيعون انقاذه .
انظر المصدر السابق ، ج ٩ ، ص ٣٢ - الحسيني : زبدة التواريخ ، ص ٢٤٢ .
- (٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٣٢ - ابن خلدون : العبر ، ج ٤ ، ص ٢٩٢ - الحسيني : زبدة التواريخ ، ص ٢٤١-٢٤٣ .
- (٣) محمد مسفر الزهراني : نفوذ السلاجقة السياسي في الدولة العباسية ، ص ١٤٩ .
- (٤) البنداري : تاريخ دولة آل سلجوق ، ص ٢١٧-٢٢١ - الذهبي : كتاب دول الاسلام ج ٢ ، ص ٦٣-٦٥ - الحسيني : زبدة التواريخ ، ص ٢٤٣، ٢٤٥ .

وفي سنة ١١٥٦/٥٥٠م خرج الخليفة المقتضى لأمر الله الى دقوقاً^(١) فحاصرها وقاتل أهلها وحينما علم أن عسكر الموصل تجهز للمسير اليها ومنعه عنها رحل عنها دون أن يظفر بها^(٢).

وفي سنة ١١٥٧/٥٥١م استغل الخليفة المقتضى لأمر الله العداة والمنافسة بين كل من ملكشاه ومحمد شاه وسليمان شاه ، فساند سليمان شاه الذى عهد اليه سنجر بولاية العهد ، واعترف به سلطانا وخطب له ، واشترط عليه الخليفة أن تكون العراق له ، ويكون لسليمان شاه مايفتحه بسيفه سوى العراق^(٣).

وفي نفس السنة حاول الخليفة أن يستميل أحد أمراء البيت السلجوقى فسمح لسليمان شاه بن محمد^(٤) بالقدوم الى بغداد وولاه سلطانا على سلاجقة العراق ، وأخذ عليه العهود والمواثيق على الاخلاص له والطاعة وعدم التعرض مطلقا للعراق لأنها تحت سيطرة وحكم الخليفة مباشرة .
كما عهد الى ملكشاه بن أخ سليمان شاه بولاية العهد ، وأمدهما الخليفة بالمال والسلاح وبفرقة من جيش الخلافة يقدر بثلاثة آلاف جندى وسيهما الى همذان لمحاربة السلطان محمد شاه ، ولما علم بذلك محمد شاه سار اليهما ، وانتصر عليهما وشتت شملهما .

-
- (١) دقوقا : البعض يطلق عليها "دقوق" وهي مدينة تقع في اقليم الجزيرة بالعراق وير بها نهر دقوق ، وصفها البعض بأن مناخها أصح من مناخ بغداد .
انظر كى لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص ١٢٠، ٢١٢ .
- (٢) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٤٧ - ابن كثير : البداية والنهاية في التاريخ ، ج ١٢ ، ص ٢٢٢ - أبو الفداء : المختصر ، ج ٣ ، ص ٢٩ .
- (٣) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ، ج ٥ ، ص ٣٢٢ - الخ : زبدة التواريخ ، ص ٢٤٠ .
- (٤) سليمان شاه بن محمد : سجن في شوال سنة ١١٦١/٥٥٥م ، وقتل في ربيع الثانى سنة ١١٦٢/٥٥٦م ، وذكر البعض أن سلطانا اسمه ملكشاه الثالث بن محمود الثانى تولى السلطنة قبله من ٢٦ صفر ٥٥٥م الى ١١ ربيع الأول .
انظر زامبارو : معجم الأنساب ، ص ٣٣٤ .

وبعد الانتصار الذي حققه محمد شاه ، راسل الخليفة المقتفى لأمر الله يطلب منه أن يخاطب له بالسلطنة ، فرفض الخليفة طلبه ، فقرر محمد شاه السير بجيشه الى العراق ، ولما علم الخليفة بذلك أخذ يعد العدة لقتال محمد شاه . ولما وصل الجيش السلجوقي بقيادة محمد شاه الى بغداد سنة ٥٥٢هـ / ١١٥٨م فرض الحصار عليها ، غير أن ذلك لم يؤثر على الروح المعنوية لجيش الخليفة ، ووصلت الأخبار الى محمد شاه بأن أخاه ملكشاه دخل همذان واستولى عليها وأعلن نفسه سلطانا عليها ، فاضطر محمد شاه الى فك الحصار عن بغداد وعاد الى همذان ، وبذلك استرد الخليفة نفوذه ببغداد بعدما زال الخطر عنها ، وقد اعتبر المعاصرون ذلك نصرا للخلافة العباسية (١).

ويعلل البعض في سبب فك الحصار عن بغداد الى يأس جنود الجيش السلجوقي من دخول بغداد ، فطلب كل واحد من أمراء الجيش أن يذهب الى أهله ، أضف الى ذلك أن الخليفة نفسه قام بارسال خطابات الى بعض هؤلاء الأمراء لتحريضهم ضد السلطان محمد شاه فاستجاب بعضهم لذلك ، فأجبر السلطان على الانسحاب (٢).

ويذكر البندارى (٣) ثمة جهود الخليفة لاصلاح أمور الخلافة ، ويحدد المناطق التي شملها نفوذ الخليفة فيقول : (وملك الخليفة العراق من أقصى الكوفة الى حلوان (٤) ، ونهر الملك (٥) ،

-
- (١) البندارى : تاريخ مختصر دولة آل سلجوق ، ص ٢٢٨، ٢٢٩، ٢٣٤-٢٣٥ - ابن الأثير الكامل في التاريخ ، ج ٩ ، ص ٥٢، ٥١، ٤٩، ٤٨ .
 - (٢) محمد مسفر الزهراني : نفوذ السلاجقة السياسي في الدولة العباسية ، ص ١٥٣ .
 - (٣) دولة آل سلجوق ، ص ٢١٦، ٢١٧ .
 - (٤) حلوان : مدينة تقع في اقليم العراق أسفل الدرب المؤدى الى جبال ايران ، انظر كى لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٢٣ .
 - (٥) نهر الملك : هو النهر الذي يحمل من الفرات الى دجلة ، أوله عند قرية الفلوجة ونهايته دجلة أسفل من المدائن بثلاثة فراسخ ، قال البعض أنها كانت عامرة بالسكان وبها غزل وأشجار .
- انظر كى لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٩٤ .

ونهر عيسى (١)، ودجيل (٢)، والراذان (٣)، وطريق خراسان (٤) الى نواحي حلوان ، وأقطع الوزير عون الدين بن هبيرة جميع ماكان لوزير السلطان ، وأرباب مناصبه في جميع هذه البلاد ، وأعانه على الاستعداد واضعاف الأعداد بتضعيف الأعداد) .

ومن هنا يتبين أن المقتفى لأمر الله سيطر على مالم يستطع أن يسيطر عليه خليفة عباسى من ذى قبل منذ أن استأثر السلاجقة بالسلطة في الدولة العباسية .

-
- (١) نهر عيسى : نهر كبير يحمل من الفرات الى دجلة ويصب في الفرضه جنوبي المدينة المدورة ، وسمى بنهر عيسى باسم الأمير العباسى الذى شق هذا النهر وجعله صالحا لسير السفن من الفرات الى بغداد .
انظر كى لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٩٢،٤٨ .
- (٢) دجيل : ولعله يقصد دجيل الأهواز التى تقع في اقليم خوزستان ، ويرجع سبب تسميتها بدجيل "تصغير دجلة" لتمييزها عن دجيل ودجلة في أعلى بغداد .
انظر كى لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٢٦٧ .
- (٣) الراذان : تقع في اقليم فارس على بعد ١٨ فرسخا من آبان .
انظر كى لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٣٢٢ .
- (٤) طريق خراسان : أشهر الطرق العامة الواصل الى الشرق ، ويربط العاصمة بمدن ماوراء النهر التى في تخوم الصين ، يبدأ من باب خراسان في بغداد الشرقية وينتهى الى أركند على تخوم صحراء الصين .
انظر كى لسترنج : بلدان الخلافة الشرقية ، ص ٢٤،٢٣ .